

اتجاهات جديدة في نمو الأطفال وحاجاتهم

النمو الوجداني العاطفي

- توطئة.
- الخلفية النظرية دراسات سابقة.
- مكانة النمو العاطفي.
- ماهية العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة ودورها في النمو العاطفي.
- ماذا يعني النمو العاطفي لدى الأطفال، وما طبيعة هذه العواطف؟
- ما الدور الذي تلعبه العاطفة وما أهم هذه العواطف؟
- كيف تنمو عواطف الأطفال وما أهم هذه العواطف؟
- ماهية العلاقة بين الأم والطفل ودورها في نموه العاطفي الاجتماعي.
- ماهية العلاقة بين الأب والطفل ودورها في نموه العاطفي.
- كلمة أخيرة.
- المراجع المعتمدة.

توطئة

نعيش اليوم في عالم طغت فيه المادة على كل شيء وطفى العقل على القلب، والعقلانية على العواطف والمشاعر وأواصر القربى والحب، وراح كل واحد منا يتنافس مع ذاته، ومع الزمن، ومع الآخر، ليتفوق عليهم مادياً، وربما عقلياً وعلمياً، ولكن قلماً فُكّر أو يفكّر أحد يوماً أن يتفوق عاطفياً، وأن يعبر عن حبه ومشاعره للآخرين، وأن يتواصل إنسانياً مع الآخر، لدرجة أننا نسينا أو تناسينا في كثير من الأحيان أننا بشر، وأخذنا نلهث، ونتراكض ونتحرك كالألة هنا، وهناك، وأصبح يصح فينا القول إننا نعاني من الأمية العاطفية.

في هذا العالم، الذي كاد يخلو من المشاعر والعواطف الإنسانية .. أخذت تتعالى بعض الصيحات لتوقظ فينا الإحساس والحب والعاطفة وأخذ بعض علماء النفس أمثال دانييل جولمان (Daneil Goleman, 2000) يتحدثون الآن عما يسمى بالذكاء العاطفي، فلقد تبين لهم من خلال دراسات وأبحاث كثيرة أن ذكاء الوجدان والعواطف هو أسمى وأرقى من أي مادة، وهو المحور الرئيس الذي تدور حوله منظومة الشخصية بجوانبها المختلفة — العقلية والاجتماعية والقيمية — بل وحتى المادية ...

من هنا فأنا أدعو اليوم المربين والأمهات على وجه الخصوص لمزيد من الاهتمام بمشاعر الأطفال وأحاسيسهم — والعمل على تنمية المهارات العاطفية والوجدانية في نفوسهم — لتسمو وترتقي — وتعمل على توجيه أفعالهم وأفعالهم وعلاقاتهم — لعل حياتهم تعود إلى صفاتها وتوازنها.

إن المراقب العادي لسلوكيات الأطفال، يستطيع أن يلاحظ انتشار ظاهرة العدوان في صفوفهم، ولا اعتقد أن الوراثة وحدها هي المسؤولة عن ذلك فالتطبع ليس قدراً محتوماً والوراثة كانت مذ كان الإنسان، ولم يطرأ عليها تغييراً يذكر، لكن التغيير الأكبر والمستمر يتناول التربية والتعليم، فالأهل والمربون على ما يبدو يشجعون ظاهرة العدوان باعتدائهم هم أنفسهم على الأطفال، ومن خلال إنزالهم العقوبات القاسية فيهم من جهة، أو بدافع الحماية

لهم من الآخر، أو الانتصار عليه وكأن بينهم حروباً ومعارك مستمرة ... ألا تستحق الحياة ما أن نجبها، أن نرى الأبيض فيها مثلما نرى الأسود، وأن نضفي مسحة من العواطف على عقولنا مثلما نحاول أن نعقلن العواطف ونضبطها في كثير من الأحيان لنتمكن من اتخاذ قرارات صائبة ومتوازنة تعتمد على العقل والقلب معاً.

يقول دوسان: يرى الإنسان الرؤية الصحيحة بقلبه لا بعينه فالعين لا ترى الجوهر
فإلى متى نقفل قلوبنا ونصم آذاننا، ونرى بعيوننا فقط ...

الخلفية النظرية: دراسات سابقة:

إن قراءة المربين والأهلين للنصوص المكتوبة المتعلقة بمشاعر الأطفال وعواطفهم، يمكن أن تزودهم بخبرات عاطفية ذات مغزى كبير من الناحية الثقافية كما تزودهم بخطط خاصة بالعمل على إدارة هذه المشاعر، والتحكم بالظروف المحيطة بها.

غير أن الاطلاع على الدراسات والأبحاث التي جرت في هذا المجال يزودهم بخبرات ميدانية تتكامل مع الخبرات النظرية، وربما تكون أكثر أهمية منها، وأشير فيما يلي إلى عدد من هذه الدراسات.

هنالك دراستان قام بهما نيكسون وواطسن (Nixon and Watson ١٩٩٩) من جامعة كاليفورنيا في الولايات المتحدة، اهتمتا بالطريقة التي يكتسب بها الأطفال النصوص العاطفية المكتوبة، وبخفا في كيفية استخدام الأطفال لهذه النصوص كي يواجهوا التحديات الاجتماعية التي تعترضهم في أثناء نموهم، وقد كانت النتائج مفيدة وبناءة.

كما قاما بدراسة أخرى، ركزت على توقعات الأطفال بشأن كيفية الترويح عن شخص مكتئب، كان فيما مضى ودوداً للغاية، وأشارت النتائج إلى ميل أطفال السابعة لاتخاذ موقف سلبي بشكل عام، بينما عبر أطفال الثانية عشرة بشكل إيجابي، وترافقت تعبيراتهم بسلوكيات توحى بتوتر نفسي شديد، وقد تبين لهما أن استراتيجية حل المشكلات مناسبة للتعامل مع تحجج الأطفال وغضبهم، في حين يعد أسلوب السعي للحصول على دعم نفسي مناسباً لدى شعور هؤلاء الأطفال بالحزن، واستخدام الأسلوبين معاً مناسباً لدى شعورهم بالخوف.

وأجرى ماريون (Marion ١٩٩٧) دراسة حول كيفية مساعدة الأطفال الصغار على التعامل مع الغضب، وركزت الدراسة على مكونات غضب الأطفال والعوامل المؤدية إليه،

وكيفية التصرف حياله، والسييل التي يمكن فيها للمعلمين أن يضبطوا تعبيرات الأطفال وسلوكياتهم الدالة على الغضب.

وأشارت النتائج إلى أنه بإمكان المعلمين أن يساعدوا الأطفال على التعامل مع الغضب من خلال توجيهاتهم نحو فهم عاطفة الغضب وضبطها وذلك باتباع الإجراءات التالية:

— تكوين مناخ عاطفي آمن.

— تقديم نموذج لإدارة الغضب وضبطه يتسم بالمسؤولية.

— مساعدة الأطفال على تطوير مهارات منظمة ذاتياً.

— تشجيع الأطفال على تمييز مشاعر الغضب.

— تشجيع الأطفال على التحدث عن التفاعلات المثيرة للغضب.

— قراءة كتب وقصص عن الغضب وآثاره.

وأخيراً الاتصال مع الآباء لكي يشاركون في عملية مساعدة الأطفال على فهم الغضب وإدارته، وأشار الباحث إلى تفوق النموذج الأول على النماذج الأخرى.

وأجرى سارني (Sarni 1985) دراسة حول العلاقات التطويرية بين إدارة العاطفة والضبط الاجتماعي. وقد تفحصت هذه الدراسة الروابط بين أمزجة الأطفال في المراحل الأولى من العمر، والعوامل الملحوظة خلال فترة حمل الأم.

واشتملت على ردود خاصة باستطلاع آراء أمهات تعرضن لمحنة نفسية خلال فترة الحمل، وملاحظة أطفال لهؤلاء الأمهات تتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وخمس سنوات، وأشارت النتائج إلى وجود علاقة دالة بين المحن النفسية للأمهات والعواطف السلبية لدى أطفالهن في السنة الخامسة من العمر.

وأجرت ليلارد وستيفاني (Lillard and Stephanie 1999) دراسة حول ما إذا كان الأطفال الصغار السن يفهمون مشاعر الآخرين ورغباتهم.

وأشارت النتائج إلى أن الأطفال الصغار السن (٥ - ٦) سنوات يظهرون إدراكاً وفهماً جيدين لمشاعر الآخرين، ويتواصلون معهم على هذا الأساس.

وأجرى شيرمان (Sherman 1999) دراسة حدد فيها المهارات الأساسية للذكاء الاجتماعي العاطفي على النحو التالي:

— الوعي النفسي.

— تنظيم العاطفة والأداء النفسي ومراقبتها.

— الاهتمام بالعاطفة والمظهر.

— الاهتمام بالمهارات الاجتماعية من أجل إنشاء علاقات أفضل.

هذا، وسيتم معالجة الموضوع في ضوء نتائج هذه الدراسات وسواها من الدراسات الأخرى النظرية والميدانية، إضافة إلى الخبرة الشخصية وخبرة الآخرين.

النمو الوجداني العاطفي:

يعلم الأهل والمربون عموماً، أن الاتصال العاطفي يستحوذ اهتماماً كبيراً في العلاقة العائلية، إن لم يكن الأهم، ويرى الدارسون والمتخصصون في علم النفس (داشن ١٩٨٦، بيومبرند ١٩٧١، وويس وآخرون ١٩٩٢ (Wes etc 1992)، (Dahn 1986, Bamperd 1971).

إن الحميمية بين الطفل ومربيه، وأمه بصفة خاصة، تعدّ مفتاح نموه العاطفي وبالتالي الاجتماعي، وهي تسهم — بشكل كبير — في أن يصبح لاحقاً في مرحلة الحضانة والروضة والسنوات التي تليها متكيفاً من الناحية الاجتماعية والوجدانية، ويرى هؤلاء المتخصصون أيضاً، أن التواصل الآمن والتركيز عليه، وأمرجة الطفل المتقلبة، والتناوب بين الهدوء والطاعة، وبين الثورة والتمرّد تعدّ من مطالب النمو الهامة، لا بل هي ضرورة ملحة له.

ويرون كذلك أنّها تنسم في تحديد الكفاية الاجتماعية لديه، وفي تكوين بنيته الفيزيولوجية الجيدة، وهم يشيرون إلى أن سنين الرضاعة تحدّد — إلى حد كبير — سيرورة وتطور حياة الإنسان، وبناءً عليه فإن الخبرة الاجتماعية في هذه الفترة المبكرة من حياة الطفل وما بعدها تستحقّ منا اهتماماً أكبر مما نعطيها إياه بكثير. (الشربيني وصادق ٢٠٠٠، ص ٢٠٣).

العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة ودورها في النمو العاطفي:

السؤال المطروح تحت هذا العنوان هو، ما طبيعة العلاقة الاجتماعية بين الأطفال وآبائهم؟ جرت العادة أن ينظر إلى أن هذه العلاقة من طرف واحد في الغالب على أساس أن الأطفال هم حصيلة أو نتاج تقنيات اجتماعية تحدث بين الأبوين وهذا يعني، أن التبادل أو التأثير الاجتماعي المتبادل بينهما يشير إلى أن العلاقات الاجتماعية في الأسرة — لا سيما العربية — علاقات ثنائية غير متكافئة فيها مؤثر ومتأثر، فيها مبادر ومتلقي، إيجابي وسلبى، حيث يقوم الآباء من جهتهم بعلاقات اجتماعية مع الأطفال، أي أنه لا توجد علاقات تأثير متبادل. وحقيقة الأمر أن العلاقة التبادلية بين الأم وأطفالها على وجه الخصوص هي أشبه ما تكون برفضة أو حوارية مترابطة ومتناغمة إلى حد كبير، بمعنى أن سلوك أي طرف يعتمد على السلوك المسبق للطرف الآخر حتى من خلال الإشارات والتعبيرات الوجهية كالغمزة والابتسامة وسواها دونما حاجة إلى كلام لفظي (بوستيل وبرناربارو، ١٩٧٤، ص ٦٧ - ٦٢).

هذا، ويولي كل من (فوجل، نودا، كاداي ١٩٨٨) (Fojel, Noda, Kaday) أهمية كبيرة لاتصال الأطفال بآبائهم عبر العيون كشكل من أشكال التواصل الاجتماعي الحميمي، حيث تستطيع الأم أن تتبادل مع طفلها وسائل فاعنة ومهمة عن طريق النظرات الخاصة للعيون، وعلى النقيض من ذلك، نرى أن التواصل الاجتماعي بينهما يتناقص وتقل فاعليته فيما إذا أدار كل منهما ظهره للآخر وتجنباً النظر في بعضهما البعض.

إن الأمهات والمربيات عموماً يعلمن من خيراتهن، أن لغة المشاعر والتعبيرات الوجهية والتحام الجسد بالآخر، ونظرات العيون الحنونة الدافئة تسهم إسهاماً كبيراً في التواصل الاجتماعي والانفعالي بين الآباء والأمهات والأبناء. (عباس، ١٩٩٧، ص ٩٢).

ماذا يعني النمو العاطفي للأطفال، وما طبيعة هذه العواطف؟

قبل الإجابة على هذين السؤالين، لا بد من تعريف العاطفة، وإن كان تعريفها ينطوي على شيء من الصعوبة، إذ ليس من السهل تحديد الحالة العاطفية لدى الطفل، أو حتى لدى الراشد، فهل يشير تسارع ضربات قلب الطفل على سبيل المثال، أو تعرقه، أو تشنجه معدته، أو ابتسامته وضحكه، أو غضبه وتوتره إلى حالة عاطفية ما؟

إنه لمن المؤكد، أن التعبيرات الجسدية والوجهية بصفة خاصة تشير إلى حالة عاطفية ما لدى الطفل، ومن هنا، يمكن تعريف العاطفة على أنها:

شعور ينطوي في الغالب على حالات متناقضة متزامنة أو متعاقبة، كدقات القلب السريعة التي ترافق بابتسامة على سبيل المثال.

ويمكن اعتبار العاطفة بشكل عام، ولدى الأطفال بشكل خاص، مفهوماً مركباً إذا ما أخضعناه للمعالجة والتحليل، نرى أنه يتألف من الخوف والقلق، والحزن والغضب، والفرح والمرح، والانبساط والتوتر، وسوى ذلك من المشاعر المتناقضة.

ويمكن أن تقدم مثلاً عن التناقض العاطفي عند الأم أثناء عملية الولادة حيث تدخل عالماً متناقضاً، تنصارع فيه أفراح الأمومة بآلام المخاض.

وعلى الرغم من احتواء العاطفة على تناقضات كبيرة في المشاعر والأحاسيس إلا أنه يمكن تقسيمها إلى نوعين:

أ — عاطفة إيجابية تنطوي على الطاقة العالية والإثارة والهدوء، وأحياناً الانسحاب المشوب بالمتعة والسعادة والضحك.

ب — عاطفة سلبية، تنطوي في الغالب على غضب واضطراب، وشعور بالذنب، وحنون وتوتر، وثورة وتمرد وما شابه.

وتجدر الإشارة إلى أن مشاعر الطفل وعواطفه تتراوح بين هذين النقيضين ولكن الشيء المهم والجديد، والذي أرغب في أن أضع تحته خطأً، وأتوقف عنده، هو أن هذا التناقض في العواطف حالة طبيعية، وحاجة ماسة لنمو الطفل، بل لعلها هي سرّ نموه وضرورته، ولا داعي لأن تقلق الأم، أو المربية من هذا التناقض في أمزجة الطفل عموماً، وفي سلوكه على وجه الخصوص، وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقلب والتناقض في عواطف الأطفال وسلوكياتهم، لا يأخذ شكلاً واحداً عند كل الأطفال بل يختلف من طفل إلى آخر من حيث الدرجة والنوع.

دور العاطفة في نمو الطفل:

للعاطفة أدوار أساسية في نمو الطفل تتمثل فيما يلي:

أ — دور العاطفة في النجاة: هنالك مشاعر عديدة يمكن أن تنتاب الطفل، وتشكل له أزمة أو صدمة في حياته، كالخوف من الظلام، والخوف من ظهور شيء مفاجئ، في محيطه ومن بعض الحيوانات، بل وحتى من الناس الغرباء، وسواها من الأمور التي تشعره بالخطر، ولا شك أن الجو النفسي الآمن في الأسرة، وإحاطة الطفل بمشاعر الدفء والحب والحنان، يمكن أن تمدّه بمزيد من الثقة والقوة والتماسك، وتحميه من هذه المشاعر المخيفة... وآثارها الضارة على صحته النفسية.

ب — دور العاطفة في احترام النظام: إن الطفل الذي يشعر بالأمن والسعادة والمحبة يسهل عليه احترام النظام، وتطبيق القواعد والتعليمات، سواء في الأسرة أم الروضة، أم أي مؤسسة أخرى يرودها، إذ يمنحه شعوره بالسعادة والشعور الآمن والثقة ومن ثم القيام بمهامه وواجباته بنجاح، دونما توتر أو قلق، لأنه يدرك — وبسبب من الثقة والحب المتبادل الذي تشكل بينه وبين الكبار (الأم، الأب، المعلم...) — إنهم وضعوا الأنظمة والقواعد والتعليمات من أجل حمايته، والحفاظ على صحته وبقائه.

ت — دور العاطفة في الاتصال: يستخدم الطفل مشاعره كي يتواصل مع الأهل والجيران والأقرباء، فهو يتسم مثلاً ليعبر عن سعادته، وارتياحه لمن حوله، لكن عبوسه وتقطيع حاجبيه، وبكاؤه أحياناً، يشير إلى عدم الارتياح، وربما يكون مؤشراً لبداية حدوث أزمة لديه، لأن لغة العواطف والمشاعر والأحاسيس، وسواها من التعبيرات والإشارات غير المنطوقة أكثر قدرة من أي لغة على التعبير عن مكونات الشخص الداخلية، لأنهما استجابات تظهر بشكل عفوي وفوري ودونما استئذان، وقلما يتمكن الفرد، طفلاً أم راشداً من ضبطها والسيطرة عليها إرادياً، لأنها تعبر بصدق عن رغباته وحاجاته، لذا، فإنه من الأهمية بمكان أن يأخذ الأهل والمربون عموماً هذه المشاعر بعين الاعتبار — ويولونها عناية خاصة، بأن يمنحوا أطفالهم حباً غير مشروط أو محدود أو مقيد، كي تتولد المشاعر والأحاسيس لديهم، نحو أنفسهم أولاً، ونحو الناس والعالم من حولهم ثانياً... بذلك نضمن للأطفال أن يحققوا ذواتهم،

وأن يعيشوا في صحة نفسية جيدة، خالية نسبياً من التوترات والمشكلات والاضطرابات، ونضمن لهم كذلك أن يقدموا مزيداً من العطاء والإنجاز في أي مجال يعملون فيه.

كيف تنمو عواطف الأطفال؟

ثمة تفاوت في نمو العواطف لدى الأطفال إذ يسبق بعضهم بعضاً، في التعبير عن هذه المشاعر، وفي شدة هذه المشاعر وحدتها واستقرارها، وسأحاول فيما يلي معالجة أهم عاطفتين لدى الأطفال أولهما عاطفتي الفرح والحزن، والطريقة التي يعبر بها الأطفال عنهما، الضحك (الابتسام) والبكاء.

أ – البكاء: يعدّ البكاء من أهم الميكانيزمات التي يستخدمها الأطفال حديثوا الولادة للاتصال بعالمهم الخارجي، ولا يوجد نوع واحد من البكاء عندهم، بل أنواع، وهناك على الأقل ثلاثة أنواع هي:

*البكاء الأساسي: وهو تقنية تنطوي على بكاء لفترة زمنية معينة يليها هدوء، ثم صفير، ثم استراحة قليلة قبل العودة للبكاء مرة أخرى، ويرى بعض العلماء أن الجوع يمكن أن يكون السبب الرئيس لهذا النوع من البكاء.

*البكاء الغاضب: هو شكل من أشكال البكاء الأساسي، لكنه يترافق بدخول كمية كبيرة من الهواء إلى الخنجر، ويمكن عدّ التسمية تعسفية أو تخيرية تطلقها الأمهات على بكاء أطفالهن عندما لا يستطيعن تحديد سبب البكاء بدقة.

*البكاء المؤلم: يبدأ هذا النوع من البكاء بصرخة عالية جداً، دونما مقدمات وتكون فترة البكاء طويلة نسبياً، يليها انحباس طويل للهواء، وبطبيعة الحال، فإن الآباء لاسيما الأمهات، هم الأكثر قدرة على تمييز هذه الأنواع لدى أطفالهن.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف يتصرف الأبوان عندما يبكي طفلهما؟ هل يتركانه حتى يسكت من تلقاء نفسه، أم يوليانه المزيد من العناية والاهتمام ومحاولة معرفة السبب؟ ... واقع الأمر، أن واطسن (Watson) أجاب عن هذه الأسئلة منذ عام ١٩٢٨ ورأى أن الأهل الذين يهتمون ببكاء الطفل، يقدمون له مكافأة تساعد على تكرار هذا البكاء

واستمراريته في الغالب، ويؤكد العالمان (أنيسورت وبولدي) (Anisort and Bolday 1989) صدق هذا الرأي، ويوصيان بعدم تجاوب الأهل مع بكاء أطفالهم بشكل دائم لا سيما إذا كان من النوع غير المؤلم، والطفل الذكي عاطفياً يستخدم البكاء كأداة للضغط على الأهل، بغية تلبية مطالبه، وانصياعهم لأوامره في معظم الأحيان، إذن ما العمل، تقول الأم، هل أتركه يبكي طوال النهار، نعم دعيه يبكي عندما لا يكون الألم سبباً للبكاء، فقد يطول بكاؤه في البداية، لكنه لا يلبث أن يتناقص بالتدرج عندما لا تستجيبين والعكس صحيح.

ب — عاطفة الابتسام والضحك: الابتسام تقنية هامة يستخدمها الطفل للاتصال

بمحيطه، ويمكن تقسيم هذه العاطفة إلى نوعين:

*الابتسام العكسي: ويظهر هذا النوع عند الطفل خلال الشهر الأول من حياته، وفي الغالب عندما يكون نائماً، بمعنى أنه ليس استجابة أو رد فعل لموقف يستدعي الضحك أو الابتسام، ويمكن عدّ هذا النوع ابتساماً عاماً غير محدد لكنه لا يلبث أن يتمايز ويتخصص بالتدرج.

*الابتسام الاجتماعي: هذا النوع هو استجابة أو رد فعل لموقف يستدعي الابتسام في محيط الطفل، ويبدأ بالظهور بين الشهر الثاني والثالث من العمر، ثم يأخذ في النمو والتطور إلى أن يصبح تخصصياً، يتناسب مع الموقف من وجهة نظر الطفل، وذلك في بداية الشهر السادس، وهو يتوجه به إلى أمه بالدرجة الأولى ثم إلى الأشخاص المألوفين بالنسبة له مثل الأب والأخوة. وتجدد الإشارة إلى أن الأطفال بحاجة ماسة للتعبير عن عواطفهم سواء كانت إيجابية أم سلبية، هم بحاجة إلى البكاء مثلما هم بحاجة إلى الضحك، ولا داعي لأن يقلق الأهل من بكاء أطفالهم، والطريقة المفضلة للتعامل مع البكاء، هي تجاهله وإهماله في الغالب، لا سيما إذا كانت صحة الطفل بخير، ولا يعاني من أمراض جسدية.

إن الحديث عن النمو الوجداني العاطفي للأطفال يقودنا بالضرورة للحديث عن طبيعة العلاقة بينهم وبين آبائهم، هل هي علاقة حميمة دافئة، أم أنه مبالغ فيها إلى درجة التعلق غير الآمن، أم أنها باردة أو فاترة ينقصها الدفء والحنان، أم أنها بينية غير متطرفة تميل إلى الاعتدال والتوازن؟ لمعالجة هذه المسائل، لا بد من الحديث عن العلاقة بين الآباء وأبنائهم بشيء من التفصيل.

العلاقة بين الأم والطفل، ودورها في نموه العاطفي والاجتماعي:

إنما العلاقة الأولى التي يخبرها الطفل، وإذا ما كانت هذه العلاقة طيبة، فإنها ستكون الأساس لجملة من العلاقات الصحيحة والطيبة مع الناس لاحقاً، وطوال الحياة، والعكس صحيح.

وبديهي، أنه كلما زادت معرفة الأم بأنواع السلوك التي تميز المراحل التنمائية لطفلها، فإنها تصبح أكثر قدرة على التعامل والتواصل معه، والتهيؤ من ثم، لمواجهة المشكلات المختلفة التي يمكن أن تعترضها في أثناء عملية النمو.

وتجدر الإشارة، إلى أن علاقة الأم بطفلها لا يمكن أن تكون طيبة ومرضية بشكل دائم، مهما كانت حذقتها وكياستها، ومستوى ذكائها.

ولعل من أوائل الأمور التي تخطر على البال في سياق هذه العلاقة، هي مسألة مطالب الأطفال الكثيرة، وكيفية استجابة الأم لها، هل تلي كل المطالب، أم بعضها أم لا تلي على الإطلاق، ثم متى وكيف تلي؟

بالطبع لا تستطيع الأم أن تلي رغبات الطفل ومطالبه كلها، بل عليها أن تلي ما يمكن، وما هو أكثر إلحاحاً وضرورة وفي الوقت المناسب، وبطريقة ذكية يقتنع الطفل بها، لأنها الأكثر دراية وخبرة بخصوصية طفلها من غيرها. (الأحمد، ٢٠٠١، ص ٥٤ - ٥٣).

بعض الأطفال يمكن أن يتكيفوا ذاتياً ويتقبلوا فكرة تلبية بعض الحاجات وتأجيل بعضها الآخر، أو حتى الاستغناء عن بعضها، والبعض الآخر منهم أكثر تشدداً في هذه المسائل. وهناك ما يعرف بالطفل الصعب الذي يصعب إرضاءه، فهو صعب التكيف، ومتطلباته شبيهة مستمرة، ولا شك أن هذا النوع يجب أن يواجه بالحزم والشدة على الأقل في بعض الأحيان.

ثمة أمر آخر يدخل في إطار هذه العلاقة ويعتد مصدر قلق للأمهات، يتعلق بمدى طاعة الطفل لتعليماتهن وأوامرهن، يمكن أن تلاحظ الأم وكذلك المربية من خيراتهما أن سلوك الطاعة عند الطفل متذبذب، ومتغير من وقت لآخر ومن مرحلة ثمانية إلى أخرى، فقد ينتقل فجأة من سلوك الطاعة، إلى سلوك التمرد والعصيان، وهذا الانتقال جداً طبيعي، لا بل هو

ضروري لعملية النمو كما سبق وأشرت، وعلى الأم أن تكون هادئة إزاء مقاومات وعناد طفلها، وعليها أن تتحلى بالصبر الكبير حتى يكبر طفلها، وتزداد قدرته على الاستيعاب والتواصل الإيجابي، إن ابن السنة والنصف على سبيل المثال لا يطيع (يلبغ وإيمز، ١٩٨٧، ص ١١٣). والمهم في الأمر أن تكون طلبات الأم معقولة ومناسبة لقدرات وإمكانات الطفل، وأن يكون لديها برنامج ثابت للتواصل مع طفلها، كأن تأخذ على عاتقها تنظيم نشاطاته اليومية وتوجهها بشكل غير مباشر، وأن تتحدث إليه بشكل عفوي وغير متكلف، وأن تتجنب الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها بـ (لا) وأن تتجنب كذلك ترك الحرية للطفل في اختيار السلوك المناسب. (الطبال، ١٩٩٣، ص ٣٢).

ثمّة أمر آخر يقلق الطفل ويزعجه كثيراً، وهو أن أبويه يتحدثان مع بعضهما ويتركانه لوحده، ولا يشركانه في الحديث، أو لا يصغيان لحديثه، وعلى الأم أن تدرك هذا الأمر جيداً، ولا تستأثر بالحديث لوحدها مع شخص آخر، حتى ولو كان هذا الشخص هو الأب، فالطفل بحاجة لأن يحدث أمه ويجاورها، وإشباع هذه الحاجة ضروري جداً لنموه اللغوي والعقلي والانفعالي والعاطفي.

إن الطفل ينمو ويرتقي من مرحلة إلى أخرى، وعلى الأم أن تتغير هي الأخرى، وأن تنوع في طرائقها وأساليبها وأشكال تواصلها معه .. لكن عليها أيضاً أن تحافظ على هدوئها وتوازنها وصبرها، وأن تتجنب المبالغة مع طفلها سلباً أو إيجابياً في كل المراحل، وعلى الصعد النمائية كافة (م.س).

العلاقة بين الأب والطفل ودوره في النمو الوجداني العاطفي:

بدأ علماء النفس أحاديثهم في الآونة الأخيرة عن الأبوة، أو عن الاستعداد للوالدية، أكثر من الحديث عن الأمومة، فالأب معني بتربية أبنائه اليوم مثل الأم، فقد تغير دوره في البيت، وفي علاقته بأطفاله، عندما بدأت الأم تخرج إلى العمل، وتحمل مسؤولية أخرى بالإضافة إلى مسؤولية البيت ورعاية الأطفال، ونحن الآن نعيش عالماً جديداً تغير فيه دور الأم وكذلك دور الأب وكان من البديهي أن يتبع ذلك تغير في العلاقات داخل الأسرة.

كان الأب في السابق هو الحاكم بأمره، عليه تأمين قوت الأبناء وحاجاتهم المادية، غيابه عن البيت طويل، وبالتالي علاقاته مع الأطفال محدودة، الآن تغيرت هذه العلاقة، وبعض الآباء تكيفوا مع متطلبات تربية الطفل ومسؤولياتهم إزاءه، شأهم شأن الأمهات، وهم يقدمون لأطفالهم خدمات، ويمارسون مهارات عديدة من أجل ذلك لا تقل عن مهارات الأم، لكن بعضهم الآخر أقل حماسة وراغبون في المحافظة على المكاسب التي حصلوا عليها، وهو التحكم بالمرأة وعدم القيام بأي عمل داخل البيت.

إذن هنالك اختلاف في شخصيات الآباء، وفي طرائق تواصلهم مع أطفالهم، لكن بإمكاننا أن نقول بشيء من الثقة، أن الآباء الجدد، أو الشباب اعتادوا أو تعلموا أو قبلوا الأبوة كما اعتادت الأم الأمومة، ولكن لكل أب طريقته الخاصة وحسبما تملئ عليه شخصيته وتربيته. (عباس، ١٩٩٧، ص ١٢١).

ولا شك أن علاقة الأم بالطفل من السنين الباكرة من عمره، أقوى من علاقة الأب وأكثر حميمية، بحكم الحاجات التي تقدمها له، وأهمها الرضاعة والحب، والحنان، والاتحلم أو الالتصاق الجسدي، حيث تبدو علاقة الأم بالطفل أكثر حساسية ورهافة وعمقاً، ولكنها أكثر قابلية للتعبير من علاقة الطفل بأبيه، إن مشاعر الطفل نحو أبيه في هذه المرحلة ليست من العمق والاختلاط والتبدل بالقدر الذي تكون عليه مشاعره إزاء أمه، لأن الأب يمثل الاستقرار والحزم، والسلطة العليا، إنه الشخص الذي يمدم المكافآت، ويوقع العقوبات، ولذلك لا يتوقع من الأطفال أن ينحذبوا إليه مثلما ينحذبوا للأم في هذه الفترة المبكرة. لكن سرعان ما تتغير هذه العلاقة وتميل نحو التحسن بالتدرج لأن عنايته ستشمل بالإضافة إلى عناية الأم (اللعسب) واللعب مع الأم يكون سهلاً لطيفاً عادة لا ينطوي على القسوة، بعكس اللعب مع الأب، فهو نوع من اللعب القاسي الذي يشمل حمل الأطفال، وقذفهم إلى الأعلى، كما ينطوي أحياناً على ممارسة بعض الألعاب القتالية، وإن كانت خفيفة، كذلك يستطيع الأب أن يصطحب طفله في أنشطة كثيرة سواء إلى بيوت الأقرباء أو المتجر أو المكتب، أو الحديقة... وكثيراً ما يسهّر الطفل بهذه الصحة، وبهذه الأنشطة، التي قد لا تتمكن الأم من تنفيذها بحكم انشغالها داخل البيت.

من جهة أخرى، فإن الطفل عندما يتعرض لموقف صعب يشعر فيه بالخطر أو التهديد فإنه غالباً ما يلجأ إلى الأم لأنها المصدر الأول والأكثر للحنان والأمان والحماية.

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن علاقة الأب بطفله، من أن نشير إلى طبيعة الدور الذي يأخذه والمتعلق بضبط سلوك الطفل، إنه مطالب هنا بدعم سياسة الأم وأساليبها وطرائقها، وإذا ما اختلف معها في بعض الأمور، فإنه يجب أن يحلّ هذا الاختلاف عن طريق الحوار بشكل سري وبعيداً عن مسمع ومرأى الأطفال، والمهم في الأمر هو، ألا يشعر الأطفال بوجود هذا الاختلاف، لأن ذلك يمكن أن يحطم كل شيء إيجابي بنته الأم أو الأب، أو كلاهما معاً.

لا بد إذن من توحيد سياسة الأبوين إزاء سلوكات الأطفال، لأن العمل وفق هذه الاستراتيجية (الاتفاق) يريح الأبوين والأطفال معاً، ويسهم في إحداث نمو سوي للأطفال وبخاصة على الصعيد العاطفي.

هذا، ولا يوجد أي مسوغ على الإطلاق لخلق جهات مختلفة داخل الأسرة ينحاز فيها الأطفال للأم تارة، وللأب تارة أخرى، لأن ذلك يمزق الطفل من الداخل، ويجعله يعيش في صراعات وتناقضات عديدة تكون مدعاة لانتهاك شخصيته وإضعافها، وربما اضطرابها وانحرافها عن السواء في المستقبل. (عبد الهادي، ١٩٩٧).

ومن المهم جداً أن نذكر الأبوين، أن الطفل يتغير من مرحلة نمائية إلى أخرى وأن هذا التغيير ينطوي على تباينات وتناقضات غير قابلة في سلوك الأطفال وعلى الأهل ألا يقلقوا، وأن يدركوا أن هذه التناقضات عادية لا بل هي ضرورية لعملية النمو شرط ألا تستفحل وتتجاوز حدود التناقضات السوية من حيث ديمومتها وشدتها وتكرارها. (الأحمد).

كلمة أخيرة:

لقد بينت دراسات كثيرة (Paulu, and Martin 1991, Rahwer 1987, PP. 111 – 112) أن طرائق الآباء في معاملة أطفالهم سواء كانت تتسم بالقسوة أو بالفهم والتعاطف — أو بعدم الاكترات — أو بمشاعر دافئة، أمور يترتب عليها نتائج بالغة الأثر، ودلت نتائج هذه الدراسات كذلك، أن الطفل الذي أنعم الله عليه بالدين ذكيين عاطفياً يستفيد فائدة كبيرة،

لأن أسلوبهما الطيب في تبادل المشاعر بالإضافة إلى تعاملهما المباشر مع الطفل يمكنهما من أن يمنحان أطفالهما دروساً عميقة في العاطفة، وتبين كذلك أن أسوأ الأساليب العاطفية الأبوية الشائعة هي التي:

— تتجاهل مشاعر الأطفال تجاهلاً كلياً وتصفهم أنهم تافهون ومملون وتركهم يعانون من القلق والخوف والغضب دونما تكرات.

— استخدام الأسلوب: « دعه وشأنه»، إذ من النادر أن يظهر بعض الآباء استجابات عاطفية لأبنائهم بل يتركهم وشأنهم ويتبعون معهم أسلوب المساومة، ويقدمون لهم المغريات كرشوة ليساعدوهم على التخلص من حزنهم وغضبهم.

— استخدام أسلوب « احتقار مشاعر الطفل وعدم احترامها»، بعض الآباء يحتقرون مشاعر أبنائهم ويصرخون بهم قائلين: لا ترد علي ... ابعد عن وجهي ...

ولكي يكون الآباء سنداً عاطفياً موجباً لأطفالهم عليهم أن يكونوا متمكنين من مبادئ الذكاء العاطفي بحيث يكونوا نماذج جيدة يتعلم الأطفال من خلالها مهارات التعاطف والحب والتعامل مع المشاعر، والتواصل الإيجابي مع الآخرين.

إن القضية تستحق منا كل الاهتمام وهي تمتد لتشمل بفوائدها الجوانب القيمة والاجتماعية والجمالية بل وحتى المعرفية إذ ينمو ... الأطفال المشبعين عاطفياً بصورة أفضل ويصبحون أكثر قدرة على الانتباه واليقظة والتفاعل والتواصل والإنجاز وارتفاع مستوى الذكاء العقلي.

وقد دلت الدراسات أعلاه أن الأطفال الذين وجدوا سنداً عاطفياً من آبائهم حققوا وبصورة منتظمة درجات أعلى في الرياضيات والقراءة والعلوم المختلفة، ولقد أبرز تقرير صادر عن المركز القومي الأكاديمي لبرامج الأطفال في الولايات المتحدة (١٩٩١) أن الاستعداد للتعليم المدرسي يعتمد بالدرجة الأولى على الأساس العاطفي الذي يتجلى في: الثقة بالنفس وحب الاستطلاع، والإصرار على تحقيق الأهداف، والقدرة على ضبط النفس والتحكم فيها، وتكوين علاقات طيبة مع الآخرين، والقدرة على التواصل والتعاون وتحقيق التوازن بين الحاجات الشخصية وحاجات الآخرين.

المراجع المعتمدة

- الأحمد، أمل، 2001: بحوث ودراسات في علم النفس، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- الطيال، أحمد، 1993: طفلك كيف ينمو، دار الشمال، طرابلس، لبنان.
- الشريبي، زكريا — صادق، يسرية، 2000: نمو المفاهيم العلمية للأطفال، دار الفكر العربي، بالقاهرة.
- جاك، بوستك — برناربارو، 1973: تطور نفسية الطفل، ترجمة حافظ الجمالي، مجلة المعلم العربي، ص/27/ع (11 - 10)، دمشق.
- دانييل، جولمان، 2000: الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، ع/262/الكويت.
- عبد الهادي، نبيل، 1999: النمو المعرفي عند الطفل، دار وائل للنشر، عمان.
- عباس، فيصل، 1997: علم نفس الطفل، دار الفكر العربي، بيروت.
- فرانسيس، ل. ايلغ، لويز ب. ب. بيمز، 1987: سلوك الطفل، ترجمة د. فاحر عاقل، دار طلاس، دمشق، سورية.

المراجع الأجنبية

- Paulu, N. and Martin, M. (1991): Helping Yourchild learn Science Washington, DC.: office of Educational Research and Improvement (ED).
- Martin, C. (1993): New Directions for Investigating Children's gender Knowledge. Developmental Review, Vol. 13, PP. 148 – 200.
- Rohwer, et. (1987): Understanding Intelligence Vol Development, Three approach, First edition, New York.
- John, W. (1995): Life – Span Development, by wm.c. Brown communications, Inc. / عن طريق الإنترنت / ERIC.

- Nixon, CharissL Watson Ann C. (1999): (Family Experiences and Early Emotion knowledge) Paper Presented the Biennial meeting of the Sociality for Research in child Development. USA, California, April 15 – 18.
- Marion, Marian (1997): ‘‘ Helping Yong Children Deal with Anger. ERIC Digest. Office of Educational Research and Improvement (ED) Washington DC.
- Saarin, Carolyn (1985): ‘‘ Development Relations between Emotion Management and social control ‘‘ Paper presented at the Biennial Meeting of the International Society for the Study of Behavioral Development (Tours France, July).
- Lillard, Angeling, Cuenrton, and Stephanie (1999): ‘‘ Do Yong Children understand what others feel, want, and know? Research in Review. Sep, ISSN.
- Sherman, Lee (1999): Social and Emotional Smarts. key Skills, Teacher Education Code, SP. V25 N6, P9 Mar Issan.